الحديث الخامس عشر

قبول الظاهر من الناس

عن المقداد بن الأسود ، وكان حليفاً لبني زُهرَة ، وكان ممَّن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، قال : قلت لرسول الله ﷺ : أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفَّار ، فاقتتلنا ، فضرب إحدى يديَّ بالسَّيف ، فقطعها ، ثمَّ لاذ منِّي بشجرةٍ ، فقال : أسلمت لله [وفي روايةٍ: فلمَّا أهويت لأقتله ؛ قال: لا إله إلا الله] أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟

فقال رسول الله ﷺ: «لا تَقْتُلْهُ».

فقلت : يا رسولَ الله! إنَّه قطع إحدى يديَّ ، ثمَّ قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله؟ .

قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَقْتُلْهُ ، فإنْ قتلتَهُ ؛ فإنَّه بمنزلتك قبل أن تقتُله ، وإنَّك بمنزلته قبل أن يقول كلمتَه الَّتي قال». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ في الكبرى(١) .

قد يكون من المفيد ـ قبل دراسة الحديث ـ أن نشرح بعض الألفاظ

---

(١) البخاريُّ برقم ٤٠١٩ ، ومسلمٌ برقم ١٥٥ ، وأبو داود برقم ٢٦٤٤ ، والسُّنن الكبرى ٥/ ١٧٤ ، وانظر تحفة الأشراف ٨/ ٩٠٢ ، ومشكل الآثار للطَّحاويِّ ١/ ٤٠٧ وتاريخ بغداد ٤/ ٢٤٢ ، وفتح الباري ١٢/ ١٨٩ ، وشرح النَّووي ٢/ ٩٨ .

obeikandi.com

والجمل ؛ الَّتي وردت فيه ، فذلك يُعيننُا على فهم المعنى ، واستجلاء النَّواحي البيانيَّة ؛ الَّتي حفَل بها الحديث.

* قوله (ثمَّ لاذ منِّي بشجرةٍ): اللَّوذ بالشَّيء: الاستتار به ، والتحصُّن به.

وقوله (فإن قتلتَه فإنَّه بمنزلتك قبل أن تقتُله) أي: إنَّه معصوم الدَّم محكومٌ بإسلامه.

* وقوله (وإنَّك بمنزلته قبل أن يقول كلمته الَّتي قال) أي: إنَّك مباح الدَّم بالقصاص ؛ إن أصرَّ ورثتُه على القِصاص منك ، لا أنَّكَ بمنزلته في الكفر.

* وقوله (فاقتتلنا) اقتتل: صيغة (افتعل) ذكر العلماء: أنَّ أشهر المعاني التي تدلُّ عليها هذه الصِّيغة ستَّةُ معانٍ ، هي:

الاتخاذ ، نحو: (اختتم زيدٌ) ، أي: اتَّخذ زيدٌ خاتماً.

والاجتهاد ، والطَّلب ، نحو (اكتسب) أي: طلب الكسب.

والمشاركة ، نحو: (اقتتل زيدٌ وعمرٌو) أي: تقاتلا.

والإظهار ، نحو: (اعتذر).

والمبالغة ، نحو: (اقتدر).

والمطاوعة ، نحو: (جمعته فاجتمع).

ومعنى هذه الصِّيغة في الحديث المشاركةُ.

راوي هذا الحديث الَّذي أجرىٰ الحوار مع رسول الله ﷺ هو المقداد بن الأسود ، وكان حليفاً للأسود الزُّهري ، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة البهرانيُّ[1]. قال الكلبيُّ: كان عمرو بن ثعلبة أصاب دماً في قومه ، فلحق بحضرموت فحالف كندة ، وتزوَّج امرأةً هناك ، فولدت له المقداد ، فلمَّا كَبِرَ المقداد ؛ وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكنديِّ خلافٌ ، فضرب المقداد

(١) نسبة إلى بهراء بن الحاف بن قضاعة (انظر شرح النَّوويِّ ٢/ ١٠٢) وجاء في اللُّباب ١/ ١٩٢: وهي قبيلةٌ نزل أكثرها مدينة حمص.

رجلَه بالسَّيف ، وهرب إلى مكَّة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزُّهري ، وتبنَّى الأسودُ المقدادَ ، فصار يقال : المقداد بن الأسود[1] ، فلمَّا نزلت الآية الكريمة ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] قيل : المقداد بن عمرو ، ولكنَّ النسبة السَّابقة هي الَّتي غلبت عليه ، واشتهر بها فكان مشهوراً بالمقداد بن الأسود .

وقد أسلم المقداد قديماً ، قال عبدُ الله بن مسعودٍ : أوَّل مَنْ أظهر الإسلام بمكَّة سبعةٌ ، منهم المقداد[2] .

وهاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً ، والمشاهد بعدها ، وكان فارساً يوم بدرٍ ، حتَّى إنَّه لم يثبت أنَّه كان فيها على فرسٍ غيرُه .

وهو صاحب الكلمة الرَّائعة يوم بدرٍ عندما قال النَّبيُّ ﷺ : «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» فقام المقداد ، فقال : يا رسول الله! امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك ، فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ، والله! لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَادِ ؛ لجالدنا معك من دونه حتَّى تبلغه ، فدعا له بخيرٍ[3] .

وذكر ابن حجر في «الإصابة»[4] : أنَّه كان طويلاً ، آدم ، كثير الشَّعر ، أعين[5] ، مقروناً[6] ، يصفِّر لحيته ، عظيم البطن ، وكان له غلامٌ روميٌّ . فقال له : أشقُّ بطنك فأُخرِجُ مِنْ شَحْمِهِ حتَّى تلطُف[7] ، فشقَّ بطنه ، ثمَّ خاطه ،

---

(١) الإصابة ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .
(٢) شرح مسلمٍ ٢/ ١٠٢ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٦ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ٣/ ٢٦٢ ونور اليقين لمحمد الخضري ١٠٩ .
(٤) الإصابة ١/ ٤٣٣ .
(٥) رجلٌ أعين : واسع العين .
(٦) المقرون الحاجبين .
(٧) أقول : كون النَّاس يفكِّرون في ذاك الزمان بمثل هذا الصنيع سبقٌ لا شك فيه ، فنحن الآن نسمع أن بعض المُصابين بالسِّمَنِ يقدمون على إجراء عمليةٍ يزيلون بها كمِّيات الشَّحم من=

فمات المقداد رضي الله عنه ، وهرب الغلام. وكان موته سنة ٣٣ في خلافة عثمان ، وهو ابن سبعين سنة.

وقد أورد ابن حجر في فضله حديثاً أخرجه التِّرمذيُّ ، وابن ماجه ، وقال ابن حجر: وسندُه حسنٌ ، وفيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الله أمرني بحبِّ أربعةٍ وأخبرني: أنَّه يحبُّهم. . . » وذكر منهم المقداد(١).

هذا الحديث واحدٌ من أحاديث عدَّةٍ يصلح أن يصوِّر لنا رغبة الصَّحابة ـ ذاك الجيل المثاليّ ـ في معرفة دين الله ، وقد كان المقداد رضي الله عنه في سؤاله ناجحاً في تصوير حالةٍ معيَّنةٍ تصويراً بالغ الدَّلالة: رجلٌ كافر يقطع يد رجلٍ مسلمٍ في ساحة الحرب. . فيلحقُه المسلم ، ويدركه ، ويتمكَّن منه ، ولمَّا أدرك الكافر : أنه مقتولٌ احتمىٰ بشجرةٍ يدفع عن نفسه الضَّربة القاتلة ، ثمَّ يسارع إلى النُّطق بالشَّهادتين ، ويعلن إسلامه.

إنَّ غريزة حبِّ الانتقام تبرز هاهنا في ذِرْوة الظُّهور ، ومكَّن لها من ذلك الظُّهور تمكُّن المسلم من الكافر ؛ الَّذي قطع يده ، وكون هذا الكافر لم ينطق بالشَّهادتين إلا عندما رأىٰ السَّيف مُصْلَتاً فوق رأسه ، وكان قبل لحظاتٍ يفتك الفتك الذَّريع بالمسلمين.

أرأيتم إلى دقة التَّصوير في هذه الحالة؟ وبعد عرض هذا الوضع المثير المعقَّد ؛ الذي يتضمَّنه السُّؤال يأتي الجواب من رسول الله ﷺ قاطعاً: «لا تَقْتُلْهُ» فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

إنسانٌ بُتِرَتْ يدُه ، وبلغ الألمُ منه مبلغاً يكاد يُفقِده السَّيطرة على أعصابه ، وتصرفاته ، وقطرات الدَّم ما تزال تنزِف منه ، وحياتُه مهدَّدةٌ إن لم يتوقَّف

= بطونهم ، والعجيب كيف قبل المقدام اقتراح غلامه؟ ولعلَّ الغلام أقنعه بمقدرته الطِّبيَّة ، وبسهولة العمليَّة. . . ترىٰ ما الأدوات الَّتي استعملها؟ وكيف شقَّ بطنه دون مخدِّرٍ؟ إنَّه خبر يلفت النَّظر.

(١) ابن ماجه برقم ١٤٩ ، والتِّرمذيُّ ٥/٦٣٦ برقم ٣٧١٨ ، والثَّلاثة الباقون: عليٌّ ، وأبو ذرٍّ ، وسلمان.

النَّزيف، أو إنْ تعرَّض الجرح إلى الالتهاب، وقد تمكَّن من عدوِّه الَّذي أفقده يده إلى الأبد... وعندما همَّ بردِّ العُدوان، والانتقام منه قال كلمةَ التَّوحيد.

في هذه الحالة على هولها يجب أن يقف عند حدود الله.. فالجواب صريحٌ حازمٌ من رسول الله ﷺ: «لا تَقْتُلْهُ».

من خلال ذلك الموقف الَّذي يطلب من المسلم أن يقفه تبدو مكانة العقيدة في حروب الإسلام الَّتي يخوضها.

إنَّ هذا التَّصوير الَّذي نلمسه في الحديث، والَّذي يشدُّنا، ويثير تشوُّقنا إلى معرفة التَّصرُّف السَّليم؛ الَّذي ينبغي أن نتصرَّفه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تؤدِّي العبارات الأخرىٰ ما أدَّاه ذاك التَّصوير.

وهذه الصُّورة الَّتي افترضها المقداد صورةٌ واقعيَّةٌ ممكنةٌ.. بل لقد وقعت مع أسامة رضي الله عنه، كما جاء في الحديث المتَّفق عليه(١). قال أسامة:

بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّةٍ، فصبَّحنا الحُرُقات [اسم موضع] من جُهينة، فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلمَّا غشيناه؛ قال: لا إله إلا الله. فكفَّ عنه الأنصاريُّ، وطعنتُه برمحي؛ حتَّى قتلته. فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنَّبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أقال: لا إله إلا الله، وقتلتَه؟».

قلت: يا رسول الله! إنَّما كان متعوِّذاً، إنَّما قالها خوفاً من السِّلاح.

قال: «أفلا شققت عن قلبه حتَّى تعلم: أقالها، أم لا؟»

[والمعنى: أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب، واعتقدها، وكانت فيه، أم لم تكن فيه. بل جرت على اللِّسان فحسب؟ يعني: وأنت لست بقادرٍ على هذا، فاقتصر على اللِّسان فقط، ولا تطلب غيره].

فما زال رسول الله ﷺ يكرِّرها عليَّ حتَّى تمنَّيت أنِّي أسلمت يومئذٍ: (أقال لا إله إلا الله، وقتلته؟) وفي روايةٍ: (أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله). وفي

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٨٧٢، ومسلمٌ برقم ١٥٨.

روايةٍ: (قال: فكيف تصنع بلا إله إلاالله إذا جاءت يوم القيامة).

قال: يا رسول الله! استغفر لي.

قال: «فكيف تصنع بلا إله إلَّا الله؛ إذا جاءت يوم القيامة».

فجعل لا يزيد على أن يقول: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله؛ إذا جاءت يوم القيامة»؟!

قال سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتَّى يقتلَه ذو البُطين (يعني أسامة)].

قال: قال رجلٌ: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]؟!

فقال سعد: قد قاتلنا حتَّى لا تكون فتنةٌ، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتَّى تكون فتنةٌ.

وقصَّة أسامة الموحية المُثيرة القائمة على الحوار تستحقُّ أن نقف عندها لولا أنَّنا الآن في صدد شرح حديث المقداد، ولكنَّني أقف وقفةً سريعةً أمام هذا الَّذي رَدَّ على سعدٍ رضي الله عنه مستشهداً بالآية الكريمة على غير وجهها، فكان ردُّ سعدٍ شديداً.

قال ما معناه: نحن أصحاب محمَّد ﷺ حقَّقنا المراد من هذه الآية، فقاتلنا حتَّى لا تكون فتنةٌ. أما أنت، وأصحابُك؛ فإنَّكم تريدون أن تقاتلوا حتَّى تكون فتنةٌ. وهذا يذكِّرني بحال كثيرٍ من الَّذين لا يفقهون النُّصوص، ولا يستوعبون معانيها على الوجه الصَّحيح... فيقعون في المُخالفة من حيث يريدون الاتِّباع، وفي جوابه بيانُ: أنَّ الآية لا تعارض الحديث.

إنَّ المقداد رضي الله عنه عندما سأل هذا السُّؤال، وعرض تلك الحالة المفترضة، سأل عن أمرٍ ممكن الوقوع، بل وقع ما يقرب منه مع أسامة رضي الله عنه، كما رأينا آنفاً.

ولكنَّ الصُّورة الَّتي عرضها المقداد فيها توضيحٌ أكثر للحكم، وأبلغ،

وفيها تشديدٌ على الأخذ بالظَّاهر ولو كان هناك ما يدعو إلى الانتقام من جهةٍ، وإلى الرِّيبة في صدق الرَّجل من جهةٍ أخرىٰ.

ففي هذه الصُّورة ذكرٌ لعدوان الكافر، وقطعِه يدَ المسلم، وهذا لم يكن مثله في قصَّة أسامة، ومع ذلك فإنَّه عندما قال كلمة التَّوحيد بعد أن تمكَّن منه المسلم المجاهد لم يجد عليه سبيلاً؛ لأنَّ تلك الكلمة عصمت دمَه على ما كان منه.

شرع الله للمسلمين القتال في سبيله، وحضَّهم على ذلك حضّاً عظيماً، وهذا الحديث يوضِّح الغاية من القتال في الإسلام.. إنَّها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ولم تعهد الدُّنيا في الجاهلية الَّتي كانت قبل الإسلام قتالاً لمثلٍ أعلىٰ، ولغايةٍ نبيلة. بل كانت الحروب قائمةً على القهر، والجبروت، والمنافع المادِّيَّة، وكان الدَّافع إلى القتال القصد إلى تحصيل منفعةٍ عاجلةٍ لشخص الطَّاغية، ومطامعه في السِّيادة، والتحكُّم، أو لصالح قومه، وأغراضهم العنصريَّة، أو لمصلحة القبيلة، وسيطرتها، ولتحصيل المغانم.. أمَّا أن تكون الغاية ساميةً تتمثَّل في رضا الله، وإعلاء كلمته، فذلك هو ما شهدَتْه الدُّنيا في الإسلام.

إنَّ المسلم المقاتل يحمل السِّلاح للدَّعوة إلى الحقِّ، فإن استجاب النَّاس له؛ كانوا مسلمين، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا. ولذلك لا يجوز أن يقوم أيُّ مسوِّغٍ لقتل من أراد الدُّخول في الإسلام من الكفَّار المستهدفين للقتال. وهذا المعنى الإسلاميُّ يُعْرَضُ كثيراً في نصوص من الكتاب، والسُّنة: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]. ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فذلك في سبيل الله»(١).

والحديث الَّذي بين أيدينا يقرِّر بوضوحٍ: أنَّ المقام الأول للعقيدة؛ فالقتال

---

(١) متَّفقٌ عليه من حديث أبي موسىٰ. رواه البخاريُّ ١/ برقم ١٢٣، ومسلمٌ ٣/ برقم ١٩٠٤.

مشروعٌ ما دام يسعىٰ إلى هذا الغرض النَّبيل؛ الَّذي حدَّده الإسلامُ: وهو أن يكون الدِّين لله.

والحديث يبيِّن بوضوح: أنَّ العقيدة تستعلي في القتال على الغرائز البشريَّة؛ التي تستعبد كثيراً من النَّاس، كحبِّ الانتقام. وأنَّ العقيدة ينبغي أن تحكُم تصرُّفاتِ الناس، وتعلوَ فوق أيِّ اعتبار.

إنَّ تاريخنا على مرِّ عصوره يقيم الأدلَّة الكثيرة على أنَّ العقيدة هي التي كانت ـ وما زالت ـ تحكم تصرُّفات الفرد المسلم الملتزم بالإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ... وكانت تتضاءل أمامها كلُّ القوىٰ، والاعتبارات الأخرىٰ، وكلُّ العلاقات والرَّوابط؛ الَّتي تقوم في حياة النَّاس.

* فهذا وحشيُّ بن حرب؛ الَّذي قتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ عندما قدِم على رسول الله ﷺ مسلماً مع وفد أهل الطَّائف لم يصبه شيءٌ من الأذى ما دام قد دخل في الإسلام، وأصبح معصوم الدَّم. يقول وحشي ـ كما روى البخاريُّ في صحيحه[1] ـ: [فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «آنت وحشي؟» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «فهل تستطيع أن تغيِّب وجهك عنِّي؟»] هذا كلُّ ما قاله لوحشيٍّ؛ الَّذي فجعه بمقتل عمِّه أسد الله[2] سيِّد الشهداء، وتحقَّق لوحشي ما سمعه من رجلٍ: والله ما يقتل محمدٌ أحداً دخل في دينه[3].

* والقريب الكافر هدفٌ للقتل، ولو كان أباً، أو ابناً، أو أخاً، ومن أروع ما يروىٰ في ذلك كلمةُ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ في أعقاب غزوة بدرٍ، عندما سأله النَّبيُّ ﷺ رأيه في الأسارى، فاقترح عليه أن يمكِّنه من قريبٍ له؛ ليضرب عنقه، ويمكِّن عليّاً، وحمزة من أقربائهم ليضربوا أعناقهم. وقد

---

(١) البخاريُّ برقم ٤٠٧٢.
(٢) انظر سير أعلام النُّبلاء ١/ ١٧٢ وانظر ترجمة وحشي في الإصابة ٣/ رقم التَّرجمة ٩١١١.
(٣) انظر سير أعلام النُّبلاء ١/ ١٧٥.

أورد ابن كثيرٍ[1] كلمة عمر رضي الله عنه كما يأتي :

[أرى أن تمكِّنني من فلانٍ ـ قريبٍ لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكِّن عليّاً من عقيلٍ فيضرب عنقه ، وتمكِّن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه ، حتَّى يعلم الله : أنَّه ليست في قلوبنا موادَّةٌ للمشركين] .

وذكر ابن حجر في الإصابة[2] أنَّ أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدرٍ ، فنزلت فيه الآية : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة : ٢٢] .

وهو فيما أخرجه الطَّبرانيُّ بسندٍ جيِّدٍ عن عبد الله بن شوذَب ، قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدَّىٰ لأبي عبيدة يوم بدرٍ ، فيحيد عنه ، فلما أكثر قصده ، فقتله ، فنزلت ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا. . .﴾ .

ومن ذلك كلمة عليٍّ بن أبي طالبٍ لعمرو بن عبد ودٍّ : (أمَّا أنا فإني لا أكره أن أهرق دمك) جواباً على قول عمرو : (غيرك يا بن أخي يا بن أبي طالب فإنِّي أكره أن أهرق دمك) وإنْ كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة ينتقد هذه القصَّة[3] .

وهذا الحديث العظيم يدلُّ على أنَّ الحقد لا ينبغي أن يحكم تصرُّفات المسلم الصَّادق . . بل عليه أن يتحرَّر بدافع من الدِّين من أيِّ مظهرٍ من مظاهره . . ويستأصل شأفته من ذاته . . . وهذا أمرٌ يمكن أن يصل إليه المرء بترويض نفسه ، وتربيتها ، وأخذها بالحزم ، وحملها على كظم الغيظ ، وإقناعها بالتزام شرع الله ، وبتذكيرها بما أعدَّ الله لعباده الَّذين يخافون مقام

---

(١) البداية والنِّهاية ٣/ ٢٩٧ .

(٢) الإصابة ٢/ ٢٤٤ ورقم الترجمة ٤٤٠٠ .

(٣) انظر القصَّة في البداية والنهاية ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦ وانظر نقدها في «منهاج السُّنَّة» لابن تيميَّة ٨/ ١٠٦ ـ ٢٢٠ ، وهي مذكورة في كتاب الطُّرف .

obeikandi.com

ربهم ، وينهون نفوسهم عن الهوىٰ ، ويؤثرون هديه على دوافعهم الغريزيَّة . . .

وقد يكون ذلك في بادئ الأمر صعباً ، ولكنّ المسلم الحازم يبلغه في نهاية المطاف . . . كما بلغه الجيل المثاليُّ من أصحاب رسول الله ﷺ . . . بينما يقوم كيان الحركات الشُّيوعيَّة ، وعمادُها على الحِقْد . . منه تنطلق ، وعن روحه تصدُر في كلِّ تصرفاتها .

أرأيت الَّذي ضرب يد المسلم ، وقطعها كيف يصبح معصوم الدَّم بعد أن يسلم لله؟ ولا يجيز الإسلام لأتباعه أن يخضعوا لأهوائهم ، وغرائزهم . . بل يرتفع بهم إلى مستوىً أرقىٰ ، فقتالهم لله ، وإحجامهم لله ، وما يصيبهم فهو في سبيل الله ، ومن دخل في الإسلام فهو أخٌ لهم في الله ، مهما كان حاله فيما سبق . . فيستجيب المسلمون لذلك .

إنَّ الإنسان بالإسلام يبدأ حياةً جديدةً ، والإسلام يَجُبُّ ما قبله من الذُّنوب . . . فكلُّ من يتعرَّض له بسوءٍ ، أو أذىً تجري عليه أحكام القصاص ، ومن هذه الأحكام أن يقتل به قاتِلُه . . إنَّه يصبح مساوياً للمسلمين من كلِّ وجهٍ ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

والإسلام عندما يقبل كلَّ مَنْ يُعلن كلمة التَّوحيد إنَّما يطبِّق مبدأ إجراء أحكام النَّاس على الظاهر ، ويكل إلى الله سرائرهم ، ولأنَّه سبحانه هو وحده الَّذي يعلم ما يسرُّون ، وما يُعلنون . . ولا يطَّلع على ما في القلوب إلاَّ علام الغيوب . . .

ذلك لأنَّ فتح باب المعاملة على ما يظنُّ النَّاسُ في حقيقة تصرفات الآخرين ، ونيَّاتهم ، وعدم إجراء أحكامهم على الظَّاهر قد ينشر الإجرام ، ويمكِّن أصحاب الأغراض الخسيسة مِنْ تحقيق أغراضهم ؛ بحجَّة أنَّ تصرُّف خصومهم الظَّاهر لا يوافق مقصدهم الحقيقيَّ ، فكلُّ إنسان مجرم يستطيع أن يجد لجريمته عذراً في أنَّ تصرفه مع صاحبه إنَّما كان لأنَّ قصده يجعله مستحقّاً للعقوبة ، وإن كان ظاهر عمله متَّفقاً مع أحكام الشَّرع .

إنَّ رسول الله ﷺ سدَّ هذا الباب . . وبذلك سدَّ طُرق الاستغلال وقطع دابر الظُّلم .

وهو في الوقت نفسه يحذِّر المنافقين ، وينذرهم بسوء المصير ، ويخبرهم : أنَّه سبحانه مطَّلعٌ عليهم ؛ إذ لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، وهو علَّام الغيوب ، يعلم السِّرَّ ، وأخفىٰ .

والحكمة مِنْ قبول الظَّاهر من النَّاس : أنَّ في ذلك مصلحةً أخرويةً للنَّاس محقَّقةً ، ومصلحةً للإسلام في نشره ، والتَّمكين له . ولنضربْ على ذلك المثل الآتي :

أسلم رجلٌ كنَّا نرتاب في أمره ، أو يغلب على ظنِّنا : أنَّه لم يؤمن بالإسلام عن عقيدةٍ ، ولا عن اقتناع بصلاحيَّته . . بل أسلم ؛ لجلب مصلحةٍ دنيويَّةٍ ، أو لدفع عقوبةٍ ، أو أذيَّةٍ . . إنَّ قبولنا إسلامه الظَّاهر ، وحفظ حياته فرصةٌ نتيحها له ليطَّلع عن كثبٍ على حياة المسلمين ، وواقعهم الفاضل ، فيدخل في قلبه حبُّ الإسلام ، ويُقْبِل عليه من أعماقه . . . وفي العصر الأوَّل كان المؤلَّفة قلوبهم ، وهم أصناف ، منهم قومٌ أسلموا ؛ ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم ، وكانوا يُعْطَوْنَ تأليفاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لهم على الإسلام(١) .

إذاً فليكن هذا الرَّجل متظاهراً بالإسلام . . فنحن نقبل منه ظاهره ، ونعامله عليه ، ونكِل أمره إلى الله . . وليعشْ في وسط المسلمين الواعين الصَّادقين العاملين بالإسلام ، فستقوده فطرتُه ، وموازنتُه بين حياة الكافرين الَّتي يعرفها ، وحياة المسلمين النَّظيفة السَّامية ، الكريمة ، العادلة ؛ الَّتي يتعرَّف عليها سيقوده ذلك كلُّه إلى الانقياد إلى الحقِّ عن اقتناع . ولنفرض : أنَّ هذه الفرصة التي أتيحت له لم تنفعْهُ وبقي سرّاً على ما كان عليه من الكفر . إنَّ ذلك لا يضرنا

---

(١) ذكر العلماء : أنَّ المؤلفة قلوبهم يكونون مسلمين ، وكفاراً ، فقد يعطىٰ الكفَّار من الزَّكاة ؛ ليسلموا ، وهذا نوعٌ ، وقد يعطى الكفَّار ؛ ليذبُّوا عن الإسلام ، وهذا نوعٌ آخر ، وقد يعطىٰ من دخل في الإسلام ؛ ليثبت إسلامهم ، أو يعطوا ليسلم نُظَراؤُهُمْ ، وهذان نوعان آخران (انظر كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى في سورة التَّوبة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ . . . ﴾ الآية وكتب الفقه في مبحث مصارف الزَّكاة) .

في شيءٍ؛ لأنَّه خضع لنظام الإسلام، ودولته، وبقيت الفرصة متاحةً له، ولذرِّيته من بعده... فإن مات هو على حاله فإنَّ ذرِّيَّته تهتدي، وتندمج مع المجتمع الإسلاميِّ.

وإنَّ قبول الإنسان في دائرة المسلمين، واعتباره واحداً منهم بغضِّ النَّظر عن ماضيه، ودينه، وسلوكه السَّابق يدلُّ على تسامح هذا الدِّين، وسعة صدره، وبعده عن العصبيَّات، والعنصريَّات الضَّيقة الَّتي تأبىٰ أن تُدخِل فيها من ليس منها. فالإسلامُ إذاً دينٌ عالميٌّ.

وهذه العالميَّة تمكِّن أمَّة الإسلام من أن تستفيد من مواهب الأمم الأخرى وخصائص عقليَّاتها، ذلك؛ لأنَّ الإنسان كائنٌ عملت في تكوينه عوامل متعدِّدةٌ من بيئيةٍ، واقتصاديَّةٍ، واجتماعيَّة، ووراثيَّةٍ، فعندما تقوم هذه الجنسيات المختلفة في خدمة فكرةٍ يعطي هذا التَّعدُّد تلك الفكرة العمقَ، والنُّضج، والإبداع.

وهذا الَّذي كان بالنسبة إلى حضارتنا حيث عملت فيها كل الطَّاقات، والمواهب، والخصائص؛ الَّتي كانت من أممٍ متعدِّدةٍ، فكانت حضارةً إسلاميَّة، عمل في خدمتها العربيُّ، والفارسيُّ، والروميُّ، والتُّركيُّ، والشَّرقيُّ، والغربيُّ.

هـذا وإن إسلام الكافر يعصم دمه، ويمكِّنه من التَّمتُّع بالحقوق الَّتي للمسلمين، ولكنَّ ذلك لا يُحلُّه منزلة القيادة والرِّياسة... إذ لا يصل إلى هذه المرتبة إلَّا مَنْ تُقدِّمه أعمالُه، وسلوكُه، وبلاؤه، وأمورٌ أخرىٰ تدلُّ على حسن إيمانه.

وهنا أحبُّ أن أشير إلى أمرٍ يقع فيه كثيرٌ من المغفَّلين بدافع طيِّبٍ مِنْ حُسْن الظنَّ بالآخرين، والفرح بدخول ناس في الإسلام، ولا سيَّماً إن كانوا أعلاماً مشهورين.. إنهم يُحِلُّون هؤلاء الَّذين أسلموا محلاً كبيراً لا يتناسب مع واقعهم... فهم يسألونهم عن أحكامٍ تفصيليَّةٍ من أحكام الشَّريعة، وهم حديثو عهدٍ بالإسلام، لا يعرفون هذه الأمور، ويريد هؤلاء السُّذَّج من أولئك الذين أسلموا حديثاً أن يرسموا لهم المخطَّطات، وأن يوضِّحوا لهم المُشكلات.. وقد يطلعونهم على ما لديهم من أسرارٍ، وعلى ما يعرفون من أوضاعٍ.

ولو كان هؤلاء المُغَفَّلون يملكون شيئاً من الأمر ؛ لوسدوا إليهم كثيراً من المسؤوليَّات . . . وهذا شيءٌ غير سديدٍ .

وإذا عرف أعداؤنا هذا التَّساهل منَّا ، خطَّطوا ؛ ليفسدوا علينا ديننا ، ودنيانا عن طريق نفر ممَّن يدخل في الإسلام ظاهراً ، وقد حصل شيءٌ من ذلك ، وما خَبَرُ يهود الدُّونمة عنَّا ببعيدٍ .

إنَّ دخول الرَّجل في الإسلام يعصم دمَه ، ويجعلُه واحداً من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم . . . ثُمَّ يعامل بعمله ، وسلوكه . . إنَّنا ينبغي أن نفيد من إمكانيات هؤلاء الذين يدخلون في الإسلام ، ومن معلوماتهم عن واقع مجتمعاتهم ، وعن نواحي الضَّعف في عقيدتهم السَّابقة ، وعن مفاسد الأنظمة الجاهليَّة ؛ التي يعرفون منها أكثر ممَّا نعرف ، وأن نستعين بهم في نقل حقائق ديننا إلى لغتهم بأسلوبٍ جزلٍ عندهم ، وأن نعرف منهم النَّواحي الَّتي يرجىٰ التَّأثير بها على قومهم ؛ إن طُرقت في دعوتنا إيَّاهم إلى الإسلام .

أمَّا بالنسبة إلى معرفة الدِّين ، فإنَّنا نحن المطالبون بتعليمهم ، وإرشادهم ، وتوضيح كثيرٍ من الأمور إليهم .

وهكذا كان سلفُنا الصَّالح يتعامل مع مَنْ يدخل في هذا الدِّين ، وكانوا يُكرمونهم ، ويحافظون على حياتهم ، وأموالهم ، ويصُونون أعراضهم ، وكراماتهم ، ولكنَّهم لا يجعلونهم فوراً محلَّ القيادة ، والتَّوجيه ، والإفتاء ، والتَّخطيط ، وفي سيرة سيِّدنا عمر رضي الله عنه أمثلةٌ كثيرةٌ من ذلك ، لقد كان يستفيد من الطَّاقات ؛ الَّتي تدخل في الإسلام ، لكنَّه لم يكن يعهد إليها بالمسؤوليَّات العسكريَّة ، ولا الإداريَّة ، ولا الفكريَّة .

وقد أرسل عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى قائدٍ من قوَّاده أربعة نفرٍ من الأبطال الأشدَّاء ؛ الَّذين عادوا إلى الإسلام بعد أن كانوا مرتدِّين ، وقال له في رسالته : أرسلت إليك فلاناً ، وفلاناً ، وكلُّ واحدٍ منهم يعدل ألفاً ، وإيَّاك أن تؤمِّر واحداً منهم على عشرةٍ .

obeikandi.com

وذكر ابن كثيرٍ[1]: أنَّ طلحة بن خويلد من الشُّجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وأنَّ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ كتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يُشاوَر، ولا يُوَلَّى شيئاً من الأمر، ونُقل عن ابن سعدٍ: أنَّه كان يُعدل بألف فارسٍ لشدَّته، وشجاعته، وبصره بالحروب. وكذلك فقد ذكر ابن كثير[2]: أنَّ عمرو بن معديكرب ارتدَّ، ثمَّ تاب، وحسن إسلامه.. ثم أمره عمر ـ رضي الله عنه ـ بالمسير إلى سعدٍ، وكتب بالوصاة به، وأن يشاوَر، ولا يولَّى شيئاً.

وجاء في «مختار الأغاني» لابن منظورٍ: كتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أبي وقَّاصٍ: إنِّي قد أمددتك بألفي رجلٍ: عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد، فشاوِرْهما في الحرب، ولا تولِّهما شيئاً[3].

وأخيراً فإنَّ هذا الحديث قد ضمَّ صورةً جميلةً للحوار الذي كان يقوم بين الرَّسول، وأصحابه أحياناً ليقفوا على أحكام الشَّريعة.

وفيه صورةٌ لواقع الصَّحابة الَّذين كانوا وقَّافين عند حدود الله، إذا بُلِّغوا حُكْماً من أحكام الله؛ وقفوا عنده لا يتعدَّونه.

وفيه زجرٌ شديدٌ، وتهديدٌ، ووعيدٌ لمن يقتل إنساناً بعد أن ينطق بالشَّهادتين، وقد ورد على وجهٍ قد يُفهم منه ـ لأوَّل وهلةٍ ـ كفرُ مَنْ يفعل ذلك «وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته الَّتي قال» وإن كان المعنى كما قرَّرنا: أنَّه بمنزلته في استحقاق القتل.

وفيه: أنَّ مَنْ قال: (أسلمتُ لله) فقد أسلم.

وفيه جوازُ السُّؤال عن النَّوازل قبل وقوعها؛ إن كانت مِمَّا يُتَوَقَّع، أمَّا ما نُقِلَ عن بعض السَّلف من كراهة ذلك؛ فهو محمولٌ على ما يَنْدُر وقوعُه،

---

(١) البداية والنِّهاية ٧/ ١١٨، وانظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣١٧، وتاريخ الطَّبري ٣/ ٥٥٧.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١٩.

(٣) مختار الأغاني ٧/ ٣٧١ طبع المكتب الإسلامي.

وأمَّا ما يمكن وقوعُه ؛ فالسُّؤال عنه مشروعٌ.

وفيه الموازنة بين حالين لكلٍّ مِنَ القاتل والمقتول، والموازنة أسلوبٌ بيانيٌّ بليغٌ[1].

وفيه دعوةٌ إلى كظم الغيظ ، واستئصال شأفة الحِقْد من النَّفس.

* * *

(١) انظر ما كتبناه عنها في «التَّصوير الفنِّي في الحديث النَّبويِّ» ص ٥١٤.

obeikandl.com